## تناقضات اليومي في رواية «دوائر الساحل» لمحمد غرناط:

# من الرفض لإكراهات الواقع الى القلق الوجودي

بوشعيب الساوري*

■ «دوائر الساحل» 1 هي الرواية الثانية في مسار محمد غرناط الروائي بعد «متاع الأبكم» 2، والتي تعزز متخيله (القصصي والروائي) المعتاد الموسوم بالاشتغال على اللغة؛ بخلق شعرية تتأسس عبر التجاور والتفاعل بين الفصيحة والعامية، ورصد الواقع اليومي بمفارقاته وتناقضاته. فضلا عن ذلك تحمل روايته الأخيرة سمات جديدة مثل: البعد العبثي، على مستوى الرؤيا، وانشدادها إلى السرد السيرذاتي مع انفتاحها على الموروث التاريخي والسردي، على مستوى طرق السرد.

### 1. السارد بين مفارقات اليومي والعبث

يُعرِّف الجرجاني صاحب كتاب التعريفات العبث قائلا: «العبث ارتكاب أمر غير معلوم الفائدة. وقيل: ما ليس فيه غرض صحيح لفاعله».3 ويؤكد أندري لالاند، في معجمه الفلسفي أن العبثي في المعنى العام هو خرق للمألوف وللمتداول، وخروج عن الإجماع والعرف وفي التعريف الفلسفي: العبثي هو كل ما هو ضد العقل والمنطق4، وتبعا لذلك فالإنسان العابث هو من يقدم على أفعال تنزاح عن المألوف والمعقول وتثير الاستغراب والاندهاش حينا والضحك والسخرية حينا آخر، ما دام لا يساير المألوف. و«إن العبث واللامعقول هو نسيج حياة الإنسان الذي يحس بأن حياته ليس لها غرض مطلق وإنما عليه أن يعيش وكأنه في خواء».5

يعيش السارد كريم التادلي اليأس والسأم، والضجر والملل في حياته الزوجية المصحوب بالشعور بعبثية الحياة وخوائها، ليدخل في انتظار دائم، يواجهنا ذلك الانتظار منذ بداية الرواية، يقول السارد: «الساعة الآن تشير إلى الرابعة والنصف. لقد تأخرت نصف ساعة عن الموعد. بدأت أشك في أنها ستحضر». (ص5,) رجل في الخمسينيات من عمره وما زال ينتظر، يعكس ذلك الانتظار عبثية حياته ولا جدواها، يتعلق الأمر بوصف حال الإنسان والتعبير عن فراغه الوجودي على مستوى المعيش اليومي.

#### نلمس العبث في ما يلي:

ـ يكتفي السارد بمسايرة الأحداث، نظرا لعجزه عن الفعل والتأثير في واقعه، ولكونه فاقدا القدرة على التميز والاختيار؛ فالتغيير والفعل يأتي في الغالب من الخارج، الشخصيات الأخرى هي التي تختار له. يقول السارد على لسان أحد الشخصيات: «لا يهم، هو قال إنك صاحب تجربة، عارف عاقل، وأشياء أخرى، أنا سمعته يحدث فؤاد، وقد أصر على أن يسند إليك هذا العمل».(103)

ـ تطور الأحداث خاضع لمنطق الصدفة، يقول السارد، متحدثا عن لقائه بخاله الذي سيتوسط له في عمل داخل مقهى: «لم أكن على موعد مع خالي بلعباس. أنا قصدت حي الأقواس لزيارة أمي(...) كان خالي يدور ببصره على وجوهنا. ثم سعل ومسح بكفه على فمه، وسألني عما أنوي فعله. أجبته وقد بدوت غير مهتم بوضعي، أنني سأزوره حَالمَا تتاح لي الفرصة(...) فما أن توقفت حتى صفق كفيه ببعضهما وقال إن هذه مناسبة أتيحت لي لإنقاذ نفسي، وربما تكون بداية لحياة جديدة».(ص54. ـ 56) يتساوق ذلك مع تبني الرواية رؤيا للعالم يهيمن عليها اللايقين والصدفة والممكن6، وفي بعض الأحيان يجد السارد نفسه يقوم بأفعال لا معنى لها، كمصادقة لزعر اللص.

ـ فشل السارد في مساره الوجودي ككل؛ في الحياة الزوجية يقول: «وصارحتها قائلا إن الحياة إما أن تنجح أو تفشل، وأظن أن حياتنا فشلت».(ص,37) وفي الحياة العملية والعجز عن تحقيق نبوءة والده. وتوالي الهزائم من السيء إلى الأسوأ(ترك الحياة الزوجية، الطرد من العمل، قبول العمل في مقهى، الاتهام بسرقة المقهى، القبض عليه من قبل رجال الدرك.)

ـ عدم استقرار البطل، الذي يسعى جاهدا باحثا لنفسه عن كينونته فينشد السير الدائم، ويراوح في أماكن متعددة، لا تربطه بها أية علاقة حميمة بل هناك علاقة نفور جلية مع الأماكن، يعكس ذلك قلقه الوجودي.

ـ السارد دائما يسير ضد التيار ويخرق المألوف والمتداول ويخرج عن الأعراف، متمسكا بقيم ومبادئ أصبحت متجاوزة في نظر محيطه الاجتماعي، مثلا حينما رفض السكن مع زوجته في شقته التي أهداها لها والدها يقول: «لن أسكن بشقة في ملكها». (ص37, .) وحينما تخلى عن العمل كأستاذ بمعهد تبعا لمبادئه وقبول العمل في مقهى رغم مستواه العلمي العالي، هذان المثالان يعكسان مفارقة وجودية يعيشها السارد، بين مسايرة الواقع وما يفضي إليه من تناقضات وبين تمسكه بمبادئ أصبحت متجاوزة في نظر محيطه.

ـ وإذا كان الطابع الغالب على الحلم هو الخيال، فإن أحلام السارد مليئة بالكوابيس والمعاناة والألم والأحاسيس الدفينة على شكل أسطوري أو خرافي، يقول: «غفوت قليلا مع طلوع الفجر، وحلمت بكلب شرس يتبعني وأنا هارب منه، استغيث بلا جدوى إلى أن أفقت».(ص7, .)

يبدو الواقع اليومي للسارد تافها بدون معنى، يغيب فيه الانسجام في نظره، وتبدو أحداثه فاقدة للمعنى، تجسد ذلك انطباعاته (السارد) التي توحي بغرابة وتناقض ما في حياته، فيقدم لنا الغرابة داخل واقعه اليومي، انطلاقا من شعوره بالغربة والقلق الوجوديين المصحوبين بنبرة ساخرة عابثة، ليأخذنا إلى أعماق اليومي بمفارقاته المطبوعة بالغرابة والتفاهة، تلك التفاهة التي تعكس عدم استقرار حياته اليومية وتناقضاتها، وتؤكد أن وجوده فاقد للمعنى,7

كما تؤكد الرواية أمراً مهماً يفسر غرابة الواقع اليومي وتناقضه؛ وهو اختلاف إدراك وتمثل هذا الواقع بين الشخصيات نفسها، وتعارض وجهات نظرها حوله. يتمثل ذلك من خلال اختلاف مواقف الشخصيات حول الواقع اليومي للسارد، فعلى الرغم من كونه واحدا إلا أن التأويلات تختلف وكأنه متعدد. ومرد ذلك هو تباين الحالة النفسية للشخصيات، ومن ذلك:

ـ اختلاف وجهتي نظر السارد وزوجته حول واقعهما المشترك. يقول السارد: «لم نتفق على الانتقال إلى الشقة الجديدة».(ص32,)

ـ تباين السارد ولزعر، يقول السارد على لسان لزعر الذي يخاطب السارد: «أنا أبحث عن السعادة الحقيقية وأنت تبحث عن التعاسة الحقيقية».(ص68, .)

ـ السارد ومدير المعهد الذي كان يدرس به يقول السارد: «قلت إن علينا أن نحرك أقدامنا ونمشي إلى الأمام، إننا سجناء وعلينا أن نتحرر، انتفض (المدير) مثل ثور مسعور وقال: مكانك ليس هنا يا أستاذ».(ص 50,)، مما يكرس غياب المعنى واللاجدوى، ويجعل السارد يسير ضد التيار.

هكذا يقضي السارد كريم حياته ضائعاً تائهاً بين لوالب الوجود والتناقض واللاجدوى وغياب المعنى، مستسلما لحياة سيزيفية، مطبوعة بالقلق الوجودي، يقول في أحد مقاطع الرواية: «وأنا تعودت على المتاعب. سيزيف من الساحل، لا أتسلق جبلا، وإنما حائطا سميكا شامخا، ولا أدفع صخرة، بل أرضا بأكملها ضخمة عاتية. أي ثقل أحمل أنا؟ تنهدت، فكل خيال اليونان لا يرى شبحي. هل فعلا أنا سيء الحظ؟ «(ص,140) مما كرس صوتا سرديا واحدا هيمن على السرد في الرواية من بدايتها إلى نهايتها هو صوت السارد البطل المثقل بالقلق الوجودي، على الرغم من محاولة الرواية التخفيف من ذلك بتوظيف تقنيات أخرى كالاسترجاع واستحضار شخصيات تراثية.

### 2. السرد بين البوح والاسترجاع

أثرت النزعة العابثة للسارد على طريقة السرد وطبعته بخاصية أساسية وهي البوح والاعتراف، فالبطل كريم التادلي لا يحكي إلا من أجل أن يبوح ويعترف بأخطائه وبخيباته وتعثراته في الماضي التي تُلقي بظلالها على حاضره، وتطبعه بالقلق الوجودي والعبثية واللاجدوى. فيلبس السرد لديه لبوس الاعتراف يقول: «رأيته ينظر إلي بفضول. ابتسم، وابتسمت أنا أيضا. لون أسناني يميل إلى الصفرة. أنا لا أقوم بتنظيفها. اختفت الابتسامة من فمه، واستغرق يتفحص وجهي وكأنه قد تغير فجأة. ربما لأنني لم أحلق ذقني، أو لأن ملابسي اتسخت. عادتي أنني لا أغيرها بانتظام. أحتفظ بالقميص فوق ظهري أياما طويلة وأنام به. أنا لم أشتر أبدا ثياب نوم خاصة. حاولت زوجتي معي أن أفعل لكنني رفضت. يروقني أن أنام بقميصي وأقوم في الصباح وأشم فيه رائحة النوم...».(ص,18) الذي يرصد مسار حياته الموسوم بالفشل وتوالي الإحباطات التي جعلته يرتمي في أحضان العبث والفراغ والتيه.

وعلى الرغم من ذلك تخللت الرواية تقنيات سردية أخرى كالاسترجاع واستحضار شخصيات تراثية والتفاعل النصي معها.

1ـ الاسترجاع بدوره مطبوع بخاصية البوح والاعتراف، فيسترجع السارد ليبوح بأخطائه ويعترف بكل شيء بما في ذلك كذبه على زوجته وإخفاء عاداته السيئة عنها قبل الزواج. لا يتم إدراج هذه الاسترجاعات بشكل عفوي، وليست خاضعة لمنطق التجاور، بل هي خاضعة لمنطق التفاعل والتعالق، كما أنها محكومة بتقنية حسن التخلص وهو مفهوم يرجع إلى البلاغة التقليدية، وخصوصا الشعر. ويتم الاسترجاع في الرواية بسبب محفزين اثنين وهما:

ـ المكان: يقول السارد متحدثا عن سوق حي العكاري: «سرت على أقدامي إلى حي العكاري ودخلت مقهى في مقابل السوق».(25) يدفعه هذا المكان إلى استرجاع مجموعة من الذكريات وخصوصا تلك التي كانت لها صلة بحياته الزوجية، يقول: «كنت من وقت لآخر أتردد على هذا المكان، فأملأ أنا أيضا أكياسا من الخضر والفواكه المعروضة وأحملها إلى بيتي. تغمرني السعادة وأنا أرى سلوى تفتحها وطفلَيَ يشاهدانها بابتهاج، وهي تنظفها وترتبها داخل الثلاجة. من هنا اقتنيت أسرة النوم، وكراسي وموائد، وأواني المطبخ، ولوازم أخرى للبيت».(25)

ـ الحدث: تسهم بعض الأحداث التي تعترض السارد البطل، في دفعه إلى القيام بمجموعة من الاسترجاعات، مثلا حدث المطر العنيف: «ونزل وابل من المطر غطى الشارع بسيل من المياه كنت أراه من النافذة يتدفق بكميات كبيرة توحي بأنه سيجرف كل شيء».(ص,16) يجعله هذا الحدث يعود إلى مخزون الذاكرة، مستحضرا حدثا مماثلا كان سببا في انتقال عائلته من القرية إلى مدينة الرباط، يقول لزميله في العمل بوبكر: «قلت له إنني أذكر أياما كالحة عشتها بالقرية، وقتها كانت مجموعة من البيوت مبنية من التراب صغيرة منخفضة. بدأ المطر يهطل، وظل يتكاثر دون انقطاع. غمرت الأزقة والبيوت مياه حمراء قاتمة، فساد الهلع وشرع السكان يجمعون أمتعتهم ويغادرون. كنت تلميذا بقسم الباكالوريا. اقترحت على والدي أن نترك القرية ونقصد مدينة الرباط حيث كنت أتابع دراستي. وافق دون تردد».(ص,17)

تضطلع هذه الاسترجاعات بعدة وظائف داخل الرواية منها:

ـ فرصة لبوح السارد واعترافه ببعض أخطائه في الماضي، ورصد مفارقات وجوده، وتراوحه بين إرضاء ذاته وإرضاء سلوى قبل الزواج. يقول، متذكرا كيف كذب عليها، عندما سألته عن شرب الخمر: «أجبت على الفور بالنفي وأنا أتطلع إلى وجهها(...) كنت في كل لقاء أتراجع، فأتحدث عما تحب وهي تراقبني من خلال أهدابها الطويلة، فيبدو لي أنها غير مقتنعة».(ص,29)

ـ إضاءة بعض الأحداث المهمة في حياة السارد (حكاية التعلم، حكاية الزواج، حكاية العمل، حكاية الانفصال عن الزوجة...) أو في حياة الشخصيات الأخرى (حكاية لزعر، حكاية بوبكر، حكاية نبيلة، حكاية ولد مسعودة، حكاية رفيقته في المقهى.)

ـ تؤشر على مجموعة من التحولات التي تمت في الذاكرة، كانتهاء فعل وبداية آخر معاكس له، نهاية وضع وبداية آخر جديد له استمرارية في حياة السارد، ما يزال يعيش السارد على آثاره. مثلا، كيف كان السارد يعيش في القرية وكيف انتقلت أسرته إلى الرباط. وكيف كان السارد مع زوجته وكيف وقع التحول.

2ـ الإضاءات التاريخية، نلاحظ أن محمد غرناط انفتح على التراث بالمعنى العام، وجعل نصه يتقاطع مع سياقات مختلفة، عبر استحضار مجموعة من الشخصيات التراثية، فرضها التشتت الوجودي للسارد وضياعه، مما جعل الرواية تتقاطع مع التراث التاريخي والسردي على شكل شذرات تلميحية تلخص مجموعة من الأحداث، وتكون في بعض الأحيان فرصة لإضاءة بعض الأحداث والمواقف التي تعرض للسارد.

يقول مثلا متحدثا عن زميله في العمل بوبكر مماثلا بينه وبين شخصية سهل بن هارون الذي اشتهر بالبخل، مع الإشارة إلى بعض الاختلافات يقول: «أنا أمزح معه أحيانا فأدعوه يا أخا سهل بن هارون، فهو مثله ينصح بجمع المال قبل العلم، ولا ينفق رزق أيام في يوم واحد، لكنه لا يقتر على نفسه، فيده ليست مغلولة تماما إلى عنقه، واستطاع أن يقتني شقة صغيرة يقيم فيها مع زوجته وأبنائه الأربعة».(ص,20)

ويقول عن الحاج إدريس الذي سيتوسط له في عمل، مشيرا إلى البذخ الذي يعيش فيه، وما قد يثيره من ملل، فيقارن تلك اللحظة بلحظة مماثلة في تجربة الخليفة الأموي معاوية بن سفيان: «كان على الطاولة حليب ساخن، عصير برتقال، ثمر، بيض مسلوق، حلويات، أفخاذ حمام، قوارير ماء.. أهذا فطور؟ وكيف يكون الغذاء؟ خيل إلي أن العجوز لا يستطيع أن يتناول كل هذا الطعام ما في ذلك شك. ذكرني بمعاوية، فقد كان حين يتوقف عن الأكل يقول: يا غلام، ارفع، فوالله ما شبعت ولكن مللت».(ص,62)

يماثل بين صديقه لزعر اللص وحماد عجرد: «سألته مازحا إن كان تعلم الكلام من حماد عجرد».(ص,109)

لقد وظف محمد غرناط عدة تقنيات سردية تراوحت بين البوح والاعتراف السيرذاتي والاسترجاعات التي تتم وفق قاعدة حسن التخلص، انطلاقا من مثير يدفع السارد إلى استدعاء ذكرى مماثلة، التي تعطي للنص تماسكه وترابطه، والإضاءات التاريخية لبعض المواقف أو الصور أو الأحداث، التي تتم وفق قاعدة المشابهة، وتجعل الرواية تنفتح على التراث بالمعنى العام.

وختاما، نؤكد أننا أمام نص روائي يبني نفسه عبر تتبع مسار تجربة وجودية تتأمل ذاتها وما تستبطنه من تناقضات، بين إرضاء الذات(بأحلامها، ونزواتها، وعيوبها) وإرضاء الغير(الأب، الزوجة، الخال، شفيقة، لزعر...)، ومسايرة إكراهات الواقع ومفارقاته، التي تقودها إلى الشعور بالعبث واللامعقول والسأم والقلق الوجودي.

---

* ناقد من المغرب

الإحالات

■ ألقيت هذه المداخلة في إطار اللقاء الذي نظمته الجمعية البيضاوية للكتبيين مع الكاتب، وذلك يوم الجمعة 5 ماي بالدار البيضاء 2006,

1ـ محمد غرناط، دوائر الساحل، جذور للنشر، الرباط، 2006.

2ـ محمد غرناط، متاع الأبكم، دار الأمان، الرباط، 2001.

3ـ الجرجاني، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1978، ص,151,

4ـ A. Lalande، Vocabulaire technique et critique de la philosophie، Çme Ed.6، P.U.F، 1988، p.12.

5ـ صلاح عدس، ملامح الفكر الأوروبي المعاصر، كتاب الهلال، العدد304، 1976، ص,21,

6ـ M. ZERAFFA، Roman et sociÇtÇ، Ed. P.U.F، 1976، p. 27.6

7ـ Ibid.، p.19.

# أنظمة ثاني أكسيد الكربون

مريد البرغوثي*

■ إنها لحظة الحقيقة. والحقيقة هي أن نوع «السلام» الذي اختاره النظام العربي الرسمي مع إسرائيل هو وليد لحظة تاريخية منحطة لا تنتج إلا كل ما هو مزيَّف كالنظام الرسمي العربي ذاته. إنه نوع من السلام الغبيّ، الجاهل بالعواقب. القضايا الجوهرية العالقة ظلت عالقة ومؤجلة تنتظر «الانفجار» بدل «الانفراج». ومنذ زيارة الرئيس السادات للقدس لم تتوقف التنازلات ولم تتوقف الانفجارات ولم يتوقف القتل.

ما نشهده اليوم ليس قضية جنود أسروا هنا وهناك كما تصورها أنظمة الرغوة وسياسيوها المصنوعون من ثاني أكسيد الكربون، بل هي انفجار «عملية السلام» كلها وبكل مراحلها على رؤوس سماسرتها السعداء ذوي الشعر المصبوغ والإرادة الكالحة. قبل ما يقرب من ثلاثين سنة تنازلَ القائد المصري تنازلاً كهربائياً صادماً وبعده تنازلَ القائد الفلسطيني تنازلاً متدحرجاً مهيناً حتى تلبية كل شروط العدو وبعده تنازل القائد الأردني تنازلاً تلقائياً مستخدماً التنازلين السابقين كمبرر أخلاقي يعفيه من اللوم ومعهم وبعدهم تنازل القادة الآخرون تباعاً تنازلات معتمة كثيرة الأسرار رطبةَ الخبايا تاركين اللاجئ لاجئاً والأسير أسيراً والمستوطنة مستوطنة والاحتلال احتلالاً وتصاعدت جرائمهم المحلية ضد أهلهم وظلت القضايا الجوهرية عالقة ومؤجلة: السيادة المنقوصة، الاستقلال المثقوب، الحدود المجهَّلة المنتهكة بالتصاريح والخوذات، الطرق المقطَّعة الأوصال، اللاجئون وحق العودة، القدس، المستوطنات، الأسرى، تعويضات الضحايا والقائمة تطول. أنظمة اقتادها العدو واحداً واحداً وخطوة خطوة نحو أحضانه ومصالحه ولكنها ذهبت إلى الهاوية معاً وكَوْمةً واحدة. أنظمة الرغوة هذه لا تريد للسيد حسن نصر الله أن يذكّرها بشيء، ولا أن يرفع في وجهها مرآةً توضح قبح ما أخذت وقبح ما تركت. بكبسة زر واحدة صاحوا سوياً: «إنها مغامرة»، أنا أصدق ما قالوا لا لأنهم على حق بل لأنهم «يريدونها» بالفعل أن تكون مغامرة، ولأنهم بالفعل يريدون للسيد أن يفشل، ما اريد أن اقوله إن هذه الأنظمة لا تخشى فشل السيد بل تخشى نجاحه.

ليذهبوا إلى الجحيم. أنا الفلسطيني الذي يأخذ الحياة والعقل والشعر مأخذ الجد أقول إني بحاجة إلى لحظة كلحظة السيد حسن نصر الله التي نعيشها اليوم. أنا بحاجة لوقفته في مواجهة العدو، ولا يضيره أن السياسيين السعداء وضعوا خصالهم في مواجهته. السيد على حق في الحالتين: إن كانت لحظته هذه صواباً سياسياً فهي لحظة بطولة، وإن كانت مغامرة وخيالاً فهي بالتأكيد، ورغم تكاليف باهظة قد تطاق وقد لا تطاق، ستنجب لحظة أخرى في المستقبل، وستشكل سابقة أمام الاجيال التي يتشكل وعيها الآن، سابقة تقول لهم إن كان التذلل للعدو والشعور بالهوان أمامه جزءاً من «موازين القوى» فإن «الشعور بالكرامة» جزء من موازين القوى أيضاً. تذكروا فقط أن «عملية السلام» أدت إلى قتلنا اليومي في عشرات المجازر وأدت إلى جر آلاف الأسرى والمعتقلين إلى زنازين العدو وزنازين الحكام، ودمرت من مدننا وقرانا، وسفكت من الدماء والدموع ما لا تسفكه الحرب ذاتها، وحولت حكامنا إلى أباطرة مثيرين للسخرية إذ لم يعد يصدق شرعيتهم أحد إلا الأعداء فبطشوا بمواطنيهم وحولوا الوطن إلى ما يشبه المزرعة والمواطن إلى ما يشبه العبد. السيد يقول اليوم «لسنا عبيد مزارع».

وسيقولها بعده الكثيرون. سيقولها بعده كل من يحبون الحياة وكل من يحبون الحرية. وكل من يحبون الشعر.

اننا بحاجة للحظة السيد حسن نصر الله هذه كي لا نموت كمداً.

---

* كاتب من فلسطين

# «أطلال جرش» مخطوطة نادرة للبدوي الملثم

عمان ـ «القدس العربي»:

من إصدارات جامعة جرش الأهلية جاء كتاب بعنوان «أطلال جرش: فصول في التاريخ والآثار والأدب»، وهو تحقيق لمخطوطة وضعها الأديب والمؤرخ الأردني الراحل يعقوب العودات (1909 ـ 1971م) المعروف «بالبدوي الملثم»، خلال الأعوام 1935 ـ 1937 حينما كان أحد معلمي مدرسة جرش الأميرية، وتولّى تحقيقها والتقديم لها الأستاذ الدكتور صلاح جرار والباحث كايد هاشم.

ويأتي نشر هذا الكتاب في إطار تنفيذ خطة دعم النشر الجديدة التي تتبناها جامعة جرش الأهلية، وهو يشتمل على أربعة فصول يتناول أولها تاريخ مدينة جرش وآثارها منذ ما قبل الميلاد، ومكانتها وأهمية موقعها في حلف المدن اليونانية العشر (الديكابوليس)، وطبيعة هذا الحلف الذي كان يضم عمّان، وبيسان، وقناثا (قنوات)، وبلاً (طبقة فحل)، ودمشق، وجدارا (أم قيس)، وهبوس، وديون، وبيت رأس (كابتولياس). ويتحدث الفصل الثاني عن آثارها التي ما تزال معظمها بحالة جيدة، لا سيما قوس النصر ومعبد زيوس (المعبد الجنوبي)، والمدرج الجنوبي الذي تقام فيه الحفلات الرئيسية لمهرجان جرش في الوقت الحاضر، وساحة الندوة (الفوروم)، وشارع الأعمدة، وهيكل أرتميس، وعن الحضارات والموجات التاريخية والثقافية الماثلة دلالاتها في هذه الآثار. وفي الفصل الثالث بحث أثري فني عن أشهر آلهة اليونان والرومان ورموزها كما تمثلها فسيفساء مدينة جرش، وكذلك عن صلات جرش الحضارية مع مدن الشرق لا سيما الاسكندرية في عهد البطالمة.

أما الفصل الرابع الذي جاء تحت عنوان «جرش والمدن العشر في الأدب العربي قديماً وحديثًا» فيكشف عن فترة من حياة شاعر العرب المتنبي عاشها في عجلون وجرش من أرض الأردن ونظم خلالها الكثير من قصائده، كذلك يورد العودات أشعاراً لعمر بن أبي ربيعة ذكر فيها العديد من المواقع التي عرفها خلال رحلاته في الأردن وفلسطين، ثم نصوصًا شعرية لثلاثة من الشعراء العرب في العصر الحديث هم: محمد الشريقي، والمطران غريغوريس حجّار، وسعيد العيسى، ومقطوعة نثرية تأملية في آثار جرش للفيلسوف التركي رضا توفيق بك، وأخرى للعودات نفسه.

وفي نهاية الكتاب مجموعة من المقتطفات التاريخية والأثرية والجغرافية والأدبية تتضمن مشابهات ومقارنات بين آثار جرش وعدد من أشهر المواقع الأثرية في لبنان ومصر.

وقد زود محققا الكتاب عملهما، فضلاً عن المقدمة الوافية التي بينا فيها قصة اكتشاف المخطوطة وجمع أجزائها ومنهجهما في التحقيق، بتسعة فهارس فنية تبين ثراء ما اشتملت عليه الفصول من المباحث والمعلومات، وبصور من صفحات هذه المخطوطة وبعض الصور النادرة لآثار جرش. كما ساهم نجل المؤلف السيد خالد العودات بكلمة ضمنها بعض ما سمعه من والده عن ذكرياته في جرش.

ويعد كتاب «أطلال جرش» أول مؤلَّف باللغة العربية عن تاريخ هذه المدينة وتراثها منذ اكتشفها الرحالة الألماني سيتزن في أوائل القرن التاسع عشر. وبصدوره يصل عدد آثار العودات المطبوعة حتى الآن إلى (23) كتاباً في التراجم والسير والتاريخ والقصة والترجمة عن الإنكليزية وأدب الرسائل.

# موسيقى الكاتيوشا

سليم البيك*

■ كنا أنا وأحد الناشطين من شبيبة الحزب الشيوعي الثوري السويدي، RKU، نستمع إلى موسيقى الجاز حين سألني رافعاً صوته كي يُسمع: أريد أن أستمع إلى موسيقى فلسطينية. فجاوبته مازحاً بأني أحتاج إلى «كلاشنكوف» كي أسمعه موسيقانا. أقول مازحاً لأني أؤمن تماماً بدور الموسيقى الفلسطينية في الحفاظ على الهوية الوطنية، وهي أصلاً بحد ذاتها مقاومة، فالعود والقربة والدُربكة والبيانو وكل آلة موسيقية سلاح، ولكن..

قرأت مرة بأن سيغموند فرويد، أو كارل يونغ لم أعد أذكر، قال بأن ما في لاوعي الإنسان قد يظهر عن طريق زلات اللسان أو الإبداع على أنواعه أو المزاح. تبعاً لذلك، يبدو أن لأصوات الطلقات موسيقى جذابة على مسامع الفلسطينيين. وليس من الغريب أن يطرب الفلسطيني لصوت الطلقات تنفجر باعثة من الكلاشن فتكون كموسيقى شعبية لصيقة بتراثه وثورته، وسبب ذلك الصورة التي يتمتع بها الكلاشن كأداة التحرير الأكثر شيوعا بين الفلسطينيين، في وعيهم ولاوعيهم.

مؤخراً برزت آلة موسيقية جديدة قديمة، وهي صواريخ الكاتيوشا التي تعزفها أوركسترا الله، أو حزب الله، على مسامع العالم. الكاتيوشا التي تدك عكا وصفد وحيفا وربما ما بعدها عما قريب. الموسيقى التي يحاول زعاقون لبنانيون وعرب أن يطغوا عليها، ولكن لم يعل نشاز فوق لحن الكاتيوشا ولا يعلو صوت فوق صوت المقاومة.

بالرغم من أن المخازن العربية لا تنقصها آلات موسيقية وإن كانت صدئة في معظمها، فلم نتعود أن نسمع أياً منها أو أن يعزف أحد عليها. لم تُستخدم هذه الآلات إلا لخرم طبول آذان الناس بالنخوجيات والعنتريات ولاحقاً بالعقلانيات، لا لخرم طبول حرب تدق في تل أبيب وواشنطن. فما ينقصنا هم العازفون للموسيقى لا العازفون عنها وما ينقصنا هم قادة للأوركسترا كالموسيقار حسن نصرالله، لا قُواداً كالـ «عقلانيين».

يقال بأن «كاتيوشا» هو اسم لأغنية سوفييتية. يمكنني تخيل كم كانت رائعة كي يطلق اسمها على صواريخ ذكّرت، بلحنها المدوي، الجيش الأحمر بروعتها.

فيا ثوار غنوا، اتركوا القُواد لغانياتهم وأموالهم وبترولهم ونياشينهم، وبأعلى الأصوات اعزفوا لنا سمفونية الحرية، غنوا الكاتيوشا ولندبك معاً على رؤوس الصهاينة، باختلاف قومياتهم.

تهوروا وغامروا، فلذلك لحن يقربني من القدس وبيروت، فما أتانا من تهوركم إلا الحرية.

---

* كاتب من فلسطين

# هواء قليل في أصابعي

عبد الرحيم الصايل*

قلت لهم أني بريء
وأني لغباوتي فقط
كنت أول من لمس جثة الحياة
فتورطت بصماتي في الجريمة

قلت لهم
أن الهواء قليل في أصابعي
وأني لذلك
بت أفضل قراءة وصايا الموتى
على قراءة رسائل الحب

قلت لهم
أن النهار لم ينصفني مطلقا
فكان لزاما علي
أن أرمي قصبتي في الليل
علني أظفر بامرأة لا تهمها تفاصيل الطعم

قلت لهم
أني أستحق أن أكون شاعرا
بعد كل هذه الأنقاض في الرأس
وبعد أن صرت أحس بالظلم
كلما التفت إلى طفولتي

قلت لهم
أن اليد التي تتفتت الآن
كانت فيما مضى
تسعف الجرحى
وتموه العاصفة
حتى يأخذ الأطفال حصصهم من الظلال

قلت لهم
أني جمعت ما يكفي من الزلازل
كي أمشي مطأطأ الرأس
غير راغب في إضافة المزيد من الأشباح إلى خزانتي
وقانعا بالضجر

قلت لهم
أني كلما استيقظت من النوم
وجدت مسدسات كثيرة تشهر فوهاتها نحو رأسي
فأتسمر كجبل جليد
رافعا ابتسامتي إلى أعلى
ومسلما كل ما جنيته من الليل

قلت لهم
أني لم أعد
الناطق الرسمي باسم الجياع وذوي العاهات
ولا الجموح الذي كان يقلب الطاولة
على الظلام
ولا الرجل الذي سيأتي محملا بالشلالات
ليطفىء حرائق العائلة
كما كانت تتنبأ الأم
ولا أي شيء، ولا أي شيء
بل صرت كل يوم
أضع اللمسات الأخيرة على جنازتي
أطوف المدن مقبرة،مقبرة
وأسأل حفاري القبور
عن موعد الدفن

قلت لهم
أني منهك وبردان
ولا داعي لانتظاري
كي أنازل العالم من جديد
فالأنفاس التي تبقت بحوزتي
بالكاد تكفي لأشعر بالذنب

قلت لهم كل ذلك
فلم يصدقوني
رغم أني كنت أتكلم عاريا كهواء

---

* شاعر من المغرب